الموريسيكون مأساة يحكيها (الأندلسي الأخير)

أ.د.عهود عبد الواحد العكيلي(*)

لاشـكَّ في أنَّ الرواية التاريخية أسـهمت بشـكل كبير في الإبانة عن القضايا الشـائكة التي تناولتها وقدَّمت تفصيلاتها بشـكل مشـوِّق إلى القرَّاء ومنها روايـة (الأندلسي الأخير) التي سـلَّطت الضوء على مأسـاة المسـلمين في الأندلس بعد تخاذل حكامها وتسـليمها للإسبان، ولم يشـعروا بفداحة ما فعلوه فقد باعوا تاريخا مداه ثمانية قرون وألقوا بشعبهم في أتون مأساة انتقامية تعد من أكثر حملات التطهير العرقي وحشية .

ولم تكن هذه الرواية الأولى في السرد العربي التي تناولت أفول دولة الإسـلام في الأندلس بل سـبقتها روايات عدّة نظـرت إلى التاريخ نظرة أفادت من أحداثـه وطعمتها بخيال الروائي وتوظيفه للرموز التي استثمرها ليقدِّم رؤيته الخاصة وقناعاته بشكل مشوِّق يأخذ القراء لعالمـه ، ومـن تلك الروايـات ،عراقي وعربي ، فالعراقـي : تمثله رواية (مخيَّـم المواركة)[١] لـجابر خليفة جابر، و(مقامات إسـماعيل الذبيح)[٢] لـعبد لخالق الركابي، وأما الروايات العربية فمن أوائلها رواية (ليون الإفريقي)[٣] لأمين معلوف، وثلاثية غرناطة[٤] لـ (رضوى عاشور) من مصر، ومنها، و(البيت الأندلسي)[٥] لواسيني الأعرج من الجزائر،

(*) جامعة بغداد/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/ ابن رُشد.

(١) صدرت عن دار فضاءات للتوزيع والنشر عمَّان الأردن ط١ ، ٢٠١٢

(٢)صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت : ٢٠١٦ .

(٣) ترجمة عفيف دمشقية ، صدرت عن دار الفارابي، بيروت، لبنان ، ط٣ ، ١٩٩٧

(٤)صدرت عن دار الشروق ،القاهرة ، ط٣ ، ٢٠٠١

(٥) منشورات دار الجمل ، بيروت ـ بغداد، ط١ ، ٢٠١٠

و(رحلــة الغرناطي)[٦] للروائــي اللبناني (ربيع جابر) وغيرها .

فــكلٌّ منهم تناول الأندلس المفقود من زاويته ، موظِّفا تجربته الروائية وأدواته السردية مستلهما التاريخ ، ومقدَّما لقرَّائــه هذه القضية بما يتلاءم وثقافته ورؤيته .

وعــلى الرغم من كــون رواية (الأندلسي الأخير) باكورة أعمال الروائي المصري أحمد أمين ، لكنني وجدتــه ممتلكا أدواته قادرا على التوظيف متمكِّنا من شــد القارئ وتشــويقه وإبكائــه ، فقد نقلني لعالمــه وعرَّفنــي بالقضية الموريســكية وكشــف خباياهــا ، معرِّفا بلغتها وهموم شــعبها وقســوة جلاديها ، مشــيرا إلى الأســباب التــي أدت إلى تلك المأســاة والنتائج التي بُنِيَت عليها ، وقد أشــار إلى بطولة المســلمين وصبرهم وتحملهــم أقسى أنواع العــذاب وثباتهــم على الإيمــان بمختلــف فئاتهم العمريــة ، ولم ينسَ بطولة النســاء ورســم صور للشخصيات النسوية الصامدة .

وبيَّنَ أهميــة الوطن ووجوب حبــه والبكاء عليه؛ لأنــه يمثــل هويتهــم واحترامهم ، وذهابــه يعني تلاشي الهوية والذل والهوان .

لقــد بنى الروائي الشــاب أحمد أمين روايته على قســمين : وقد أشــار إلى ذلــك في الرواية نفســها ((كانت الأوراق مقسومة إلى جزأين، أحدهما كتبه (عــلي بدية) صاحب المخطوطات بنفســه، والآخر كتبــه رجــل أندلسي من أهــل غرناطة يســمى أبا الحســن الغرناطي ذكر فيه آخر خمسة أيام قبل ســقوط غرناطة، وقد وصلت أوراقه إلى علي بدية فقام بترجمتها من العربية إلى الخميادو)) [٧] .

وعــرض الروائــي القضية الموريســكية بشــكل فني مبينــا ماهيَّة لغتهم(الخميادو) واصفا إياها بأنها :((تكتب بحروف عربية وتقرأ بالإسبانية)) [٨] وكان اللجــوء إلى هــذه اللغة دفعا للمــوت عنهم، وقــد علــل ورود ذلــك في الرواية قائــلاً : ((ولكي يتفادى الأندلســيون الذين أطلــق عليهم فيما بعد لقب الموريسكيين ذلك الأمر]الموت[، قاموا بكتابة ما تبقَّى لديهم من تعاليم إســلامية وآيات قرآنية بلغــة الخميــادو، وهي تحريــف أســباني لكلمة (الأعجميــة)، وكانــت تكتب بحــروف عربية لكن تنطــق بالإســبانية فمثــلا كلمة الله في الأســبانية تكتب هكــذا DIOS وعند تحويلهــا إلى الخميادو تصبح هكذا (ديوس) [٩] .

وكان في ذلك خلاصهم ((فإذا وقعت تلك الأوراق في يد محاكم التفتيش عجزت عن معرفة محتواه، وبذلك يتفادى الموريسكيون بطش المحكمة، التي قامــت بحرق الآلاف منهم وقتلهم بأبشــع الطرق بعد تعذيب لا يحتمله بشر)) [١٠].

وقد بيَّن أن هذه الأوراق التي كتبت بعد تســليم أبي عبد الله الأحمــر الصغير غرناطة للنصارى ؛ ليكــون ذلك مدعــاة لبدء المأســاة ، ولبيان أن من تســبب فيها هــو الحاكم الخائن . فالتســليم كان

(٦) صدرت عن دار التنوير ، ط٢ ، بيروت ، لبنان ، ٢٠١٣

(٧) الأندلــسي الأخــير : صــدرت عــن دار تبــارك للنشر والتوزيع ، ط٦، ٢٠١٨ : ١٦

(٨) م . ن : ١١

(٩) م. ن : ١٥ .

(١٠)م. ن : الصفحة نفسها .

في ١٤٩٢ م [١١] ، وأن العثـور عـلى مخطوط أبي الحسن الغرناطي كان في ١٨٠٥ م

أي أن المخطـوط مرت عليه أربعة قرون ، وقد بيَّن أنه مقسم على خمسة أجزاء ((تناول فيها آخر خمسة أيام في غرناطة ، ووضع كل يوم في ورقات منفصلة ذاكرا في بدايتها رقم اليوم))[١٢].

ففـي اليوم الأول تناول حي البيازين وبيَّن ما يشـع فيه من حماس غرناطة وبطولات موسى بن أبي الغسان ، وبعد موته عمَّ الصمت المطبق .

وفي اليوم الثاني تصوير الحزن الذي أبعد الأحبة عن الرغبة في اللقاء

أمَّـا اليـوم الثالـث ففيـه تصويـر لانكسـار غرناطة وانكسار الحماس في قلوب الناس، وبيع قـادة الجند وأعيان غرناطة أملاكهم والاسـتعداد للرحيل.

وفي اليـوم الرابـع بكاء الشـمس على غرناطة وشعور البيوت بالحزن ، يقول :

((لا أعتقـد أن هنـاك بيوتاً تشـعر بالحزن مثلها كانـت جدرانها تهمـس إلى بعضهـا وتنفِّس عن أتراحها وآلامها، حتى أني شـعرت أن لو كان لها صـوت لصرخت من هـول ما يحـدث، كان المطر يتسـاقط خفيفا في تلك اللحظة كأن السماء تبكي عـلى غرناطـة، أو عَلَّهـا أرادت أن تمسـح الحزن المكسو على جدران البيوت الحزينة)) [١٣] .

(١١) تحدَّث باسـتفاضة د.عبد اللطيف مشرف في كتابه (هجرات الموريسكيين)، منشورات الربيع ، مصر، القاهرة ط٢ ، ٢٠٢٠ ، عـن أحـوال غرناطـة وتردِّيهـا ،وكيفيـة تسليمها والمعاهدة التي وقعها أبو عبد الله الصغير ينظر: ٤٥ ـــ ٥٨ .

(١٢) الأندلسي الأخير: ٢٤

(١٣) م. ن : ٤٢ .

أمَّـا اليوم الخامس فهـو يوم ضياع غرناطة بتوقيع أبي عبد الله الصغير وثيقة تسليم غرناطة، التي لم تشـهد حزنا وبكاء مثل ما شهدته في ذلك اليوم .

أهمية الوصف

للوصـف أهمية كبرى في الروايـة التاريخية لإبراز الموصوف وتشويق السـامعين إليه ، يقول قدامة ابـن جعفر في تعريفه :((ذكـر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئـات))[١٤] والغايـة منه من خلال إعادة رسـم صورة الموصوف من خلال استقصاء أجزائه وأحواله [١٥] .

ونظـرا لاعتماد الروايـة التاريخية على الأحداث فإنَّ مـا يجملهـا وينقلها إلى المسـتوى الفني هو العناية بالسرد وإجادة الوصف فالسرد يسـتلهم من الأحـداث محتواه والوصف ينقـل القارئ إلى بيئة الحدث ويشـوقه للمتابعة ، ولأهمية الوصف وتشـخيصه لأحداث قيل : ((مـن الأيسر أن نعثر عـلى الوصف مـن دون الـسرد مـن أن نعثر على الـسرد من دون الوصف)) [١٦] وكان الوصف على نوعين :

وصف الشخصيات :

لابد أن يرسـم الروائي صورة مشوِّقة لشخصيات روايتـه ، ويتضح من خلالها مـا يريد الكاتب أن

(١٤) نقـد الشـعر ، أبـو الفـرج قدامـة بـن جعفـر (ت ٣٣٧هـ)، تحقيـق: كمال مصطفـى، مكتبـة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٨، : ٣٤ .

(١٥) يُنظـر شـخصية المكان في أدب الرحلـة، أحمد عبد العظيـم رومية ، دائرة الثقافة والإعلام الإمـارات العربية المتحدة ، الشارقة،ط١ ، ٢٠١٥ : ١٥٢ .

(١٦) الـسرد والوصـف السرد والوصف، جـيرار جينيت، ترجمة: مهند يونـس، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، ع ٢، ١٩٩٢ : ٥٢ .

يوظِّفَه في بيان الأحداث التي يُعَرِّج عليها الراوي ، وأثر تلك الشـخصيات ولا يكون ذلك إلَّا من خلال وصفه لهـا وتمكين القارئ من رؤية الشـخصية الناطقة الحية ، ولابد أن تتحلى بالصدق والحرارة لتمكن القارئ من تحسـس رؤية الحقيقة ونبض الحيـاة عند تفاعله معها واقتناعه بها فيعيش مع الرواية جوا من الود والتعاطف [١٧] .

شخصيات الرواية

هنـاك العديد من الشـخصيات منها الرئيسـة كشـخصية الغسَّـاني الذي روى ما يتعلق بالأيام الخمسـة ، وعـلي بدية الـذي ترجم هـذه الأوراق وشـهد المأسـاة وكان الأندلـسي الأخـير وهو أهم شـخصية دارت عليهـا الأحداث وأحسـن الكاتب في تصوير الكثير من المشـاهد التي تخص تعذيب عائلتـه وأخذه للديـر ومجاراته للرهبـان ولقائه بالموريسكيين المحافظين على دينهم الثابتين عليه حتـى تكليفـه بمهمة التبشـير في الفلبـين وغرق السفينة التي تقله والآخرين ونجاته على يد سفينة مصرية أنقـذه طاقمها ليذهب بعـد ذلك إلى مكة وتتحقق رؤياه .

شخصية والد علي بدية الثابتة على مبادئها على الرغـم من العذاب الأليم فقد احتمل أشـد العذاب من غـير أن يبدي انكسـارا أو يظهر إسـلام ابنه الناجـي الوحيـد من المحرقة ، وقد صـوَّر الكاتب شـجاعة العائلة بقوله : ((لم أسـمع أي صرخات منهـم أو طلبـا للرحمة، حتى بعـد أن قام الجلاد بربطهـم في العمود الخشـبي اسـتعدادا لحرقهم بالنـار، خيم صمت رهيب على المكان واحتبسـت الأنفـاس في الصـدور منتظرة سـماع صرخاتهم لكـن لـم ينطق أي واحـد منهم بكلمـة أو يصدر عنـه أي شـعور بالألم، كل ما سـمعته هو صوت أبي وهو يقول:(لا غالب إلا الله، هو الحي الذي لا يموت))[١٨].

وشـخصية الشـيخ عمر أو (دون دييجو) ذلك البطل الذي خدع الكنيسة لسنوات واستعمل أحد منازله مسـجدا للموريسكيين وكان حلقة الوصل بين الموريسـكيين رجالا ونسـاء، لينفـذ فيه حكم الكنيسة بالموت حرقا له وللمسلمين الثمانية الذين كانـوا يصلُّـون معـه، إذ أضرمت النار بالمسـجد ليحترق بمن فيه .

والقـس كاميليو الـذي عرفه بديـة ورآه مرات عديدة ، بقي عشر سنوات متخفيا يبدي النصرانية ويكتم إسلامه كان موريسكيا اسمه قاسم .

أمَّـا الأطفـال فيمثلهـم (علي بدية) الذي شـهد مأسـاة أهله وتعذيبهم وموتهم حرقاً ، لكن الذي ميَّـزه هـو نضج تفكـيره وثباتـه وقـوة تحمله ، فالمأسـاة فـوق تحمـل الأطفـال ورد على لسـان الصغير : ((كانت رؤية النيران وهي تلتهم عائلتي منظـرا أعجز عن حكايته، كل ما اسـتطعت فعله هـو الصراخ وبكل قوة حتى خارت قواي، وفقدت وعيي وسـقطت في يد ذلك الرجل الذي أمسك بي قبل أن اقتحم النيران)) [١٩] .

لـم يفارقنـي هـذا المشـهد أبـدا، فطـوال تلك السنوات كنت أراه كل يوم في منامي وأرى النيران وهي تلتهم أجسادهم.

(١٧) في النقد الأدبي الحديث، مجد محمد البرازي، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان - الأردن، ط١ ، ١٩٨٦ : ١٤٩

(١٨) الأندلسي الأخير : ٦٢

(١٩) م . ن :٦٤ .

أمَّا النساء فكانت البطولة وحب الوطن والثبات على العقيدة أهــم صفاتهن ، فمنهن العجوز التي كانت تبكي على ضياع غرناطة وتمجد الشــهادة ، قال الروائي مصوراً : ((من بعيد شاهدتها تجلس وحدها عجوز متشــحة بالسواد كأنها تجسد حال غرناطة هذه الأيام ، كانــت تبكي بحرقة ويصدر منها صوت ضعيف ، اقتربت منها محاولا الانصات لما تقول فسمعت منها ما أبكاني)) [٢٠] .

أما كلماتها التي تغنِّي فيها لغرناطة فهي تصوير ناطق بحبها غرناطة والحسرة على ضياعها :

((غرناطة يا مولد نفسي ...
غرناطة يا موطن عرسي ...
كم صرختِ ! كم تألمتِ ! كم ناديتِ !
إن لم يجبك تاشفين ، أو الغافقي ..
فعزائي أنَّ على أسوارك .. مات الغساني !)) [٢١] .

وهناك امرأتان بطلتان ورد ذكرهما في الرواية هما : مسلمة أبدة ومسلمة أبلة [٢٢] وهما المكلفتان من الشــيخ عمر بإعطاء التعليمات الدينية لعلي بدية ليكون حلقة الوصل بين الموريسكيين ودينهم .

وصف علي بدية مسلمة أبدة ولقاءه بها : ((وفي أحد الأيام وجدتها تنظر إليَّ، كانت امرأة في حوالي الأربعينيات من عمرها ترتدي ملابس النصرانيات الإســبانيات، لــم يكن يبدو عليهــا أي شيء مريب بالنسبة لهم ، أما أنا فقد رأيت ما لم يره أحد سواي، إنه الإســلام، أي بداخلهــا مــا أراه بداخلي، كانت تضمر الإســلام مثلي وتتظاهر النصرانية، كان في عينيها بريق لا يمكن أن تخطئه عين موريســكي، إحساس لن يشعر به سوى الموريسكيين)) [٢٣] .

أمَّا تعرُّفه على شخصيتها فكان من خلال ورقة وضعتها بــين رغيف الخبز يقــول واصفا الورقة :((وفي آخــر الورقة كتب فيها أنَّ حاملة الرســالة هي مســلمة أبدة وســوف تأتي إلى هنــا كل فترة لإعطائــي رســائل الشــيخ عمر، كتــب لي أيضا في الرســالة أن ألتزم الحرص التــام، وإلا أظهر أي تعاطــف أو شــفقة نحو المورســكيين أمام رجال المحكمة بل يجب أن أكون شــديد الحدة والغلظة وأنا أتحدَّث عنهم)) [٢٤] .

أمــا المــرأة الأخرى (مســلمة أبلة) فقــد عرّفها مثلما عرّف الأولى إذ كانت تنفّذ مهمّة موكلة إليها، فيقول : ((توالت الرســائل بعــد ذلك ورأيت المرأة الأخرى (مســلمة أبلة) التي لم تكن تختلف كثيرا عــن صديقتها. كانت الرســائل تشرح لي المأســاة التــي يعاني منهــا الموريســكيون بالخــارج من تناقص أعدادهم بشكل كبير بسبب عمليات القتل والتنصير التي ينفذها النصارى ضدهم)) [٢٥].

كانــت المــرأة ذات شــخصية قويــة وهي مهمة ومؤثــرة، فيقــول على لســان علي بديــة:((كانت مســلمة أبلة كما قال لي الشــيخ عمــر عالمة بأمور الفقه الإســلامي، [٢٦] ، كانت تلك العلوم بالنســبة لي شيئا مجهولا لم أسبر أغواره قبل ذلك، و أموره الفقهية كانت تشغل بالي وتثير قلقي)).

وقد جعل الروائي في شخصية مسلمة أبلة تعويضا عما فقده الصغير من حنان أمه

يقــول عن أحــد لقاءاته بهــا : ((وفي إحدى المرات

(٢٠) م . ن : ٢٩ .
(٢١) الأندلسي الأخير: ٣٠ .
(٢٢) أبدة وأبلة مدينتان في إسبانيا .
(٢٣) الأندلسي الأخير : ٧٥
(٢٤) م . ن : ٧٦ .
(٢٥) الأندلسي الأخير: ٧٦ .
(٢٦) م . ن : ٧٧ .

طلبت منها معرفة بعض الأمور الفقهية نظرت إليّ في رقّة، وهي تقول: لا تشغل بالك بكل هذه الأمور، فالإسلام أسهل وأيسر من ذلك ،ألححت عليها في الطلب فوعدتني بإحضار بعض الأوراق التي سوف تريح بالي في كثير من الأمور، لكنها أتبعت قائلة: لا ترهق نفسك كثيرا يا بني؛ فالأمر أهون من ذلك.)) [٢٧] فقد أدخلت السرور إلى نفسه: ((ظلت مدة طويلة في شوق ولهفة لما سوف تحضره، وفي اليوم الذي وانت فيه بالأوراق أعجز تماما عن وصف السعادة التي تملكتني، أخذتُ الأوراق منها في لهفة واضحة، وتحين أول فرصة وصعدت بسرعة إلى حجرتي فضضت اللفافة برفق، وبنهم شديد بدأت في القراءة..)[٢٨]. فكانت المرأة عاملا قويا في تعديل كفة المأساة فجعلها الروائي مبعث الفرح والسعادة لتخفف الألم الذي لحق بالصغير وعاملا قويا في بث روح الحماس في الصغير ليستطيع مواجهة المصاعب الكثيرة التي ألَّمت به .، فبينما كان ينام وصورة احتراق أهله تتكرر في نفسه وتشعره بالخوف والإحباط كانت صورة مسلمة أبلة تشده لمحيط الأسرة المفقود، وتسمعه كلمة (يا بني) التي افتقدها منذ حرق والديه، فعادل الروائي كفة الانكسار بإظهار هذه الشخصية التي كان لها أثرها في بث الثبات في شخصية علي بدية الصغير .

إذاً ، لم تظهر المرأة في الرواية إلا قويَّة محبَّة لوطنها ، حتى أم أبي عبد الله الصغير الذي كان توقيعه على تسليم غرناطة باعثا للألم الجماعي ولضياع الوطن ، ظهرت محبة لغرناطة ، وكان الظهور الوحيد لها عندما قرَّعت ابنها حين رأته يبكي على تسليم غرناطة قائلة له : ((ابكِ كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال)) [٢٩] .

وصف المكان

لابد من وصف الأمكنة وتعريف القارئ بها ؛ لبيان أهميتها في تجسيد الحدث وأثره في الشخصيات التي تناولها الراوي، وقد ورد في الرواية وصف لكثير من الأمكنة ومنها حقول غرناطة : ((أذكر عندما كنت صغيرا، كنت أرتع مع أبي إلى حقول غرناطة، أقطف البرتقال وعناقيد العنب، كنت أرتع مع الأطفال في ربيع الحصاد على ضوء قمر غرناطة، كنا صغارا، لكن الوطن كان كبيرا، أكبر من كل شيء في هذا الكون، وطننا كان أكبر وأحلى من كل الأوطان، وطننا كان غرناطة، وهل في الأوطان مثل غرناطة؟)[٣٠]، وأستشف من ذلك أن غرناطة تمثل ماضي (علي بدية الخصيب) يوم كانت في أوج عطائها ، وقد وظَّف التضاد ؛ ليبيِّن حبه لمدينته (كنا صغارا، لكن الوطن كان كبيرا، أكبر من كل شيء في هذا الكون، وطننا كان أكبر وأحلى من كل الأوطان)

وأفول نورها وابتعاده عنها يعني انتهاء العالم بالنسبة له ، يقول : ((أخذت أتجول في شوارع غرناطة التي اكتست بالحزن هذه الأيام، كأنّي أراها للمرة الأولى وربما تكون الأخيرة! ، هل سأرى تلك البيوت مرة أخرى؟! هل سأسمع الأذان في جنبات غرناطة؟! هل سيتردد فيها قول (لا إله إلا الله)؟!)) [٣١] : فهذه صورة الحزن

(٢٧) م . ن: الصفحة نفسها.
(٢٨) م. ن : الصفحة نفسها .
(٢٩) الأندلس الأخير: ٥١ .
(٣٠) م . ن : ٤٤
(٣١) م . ن : ٤٥ .

التــي رأى بهــا غرناطة حتى أنــه تمنى أن يموت ولا يراهــا هكــذا ، يقــول : ((غلبتني مشــاعري فانهمرت في بكاء عنيف، في تلك اللحظة تمنيت لو أني قدمت قبل هذا وكنت نســيا منسيا! ، لم أدرك كــم هو مريح الموت إلا في تلك اللحظة؛ إنها لحظة الضيــاع ! صدقت والله العجوز (ســنتمنّى الموت فلا نجده)!!)) [٣٢] .

ومن ذلك أيضا وصفه للبحر عند غرق السفينة التي تحمل علي بدية يقول : ((كانت الســفينة قد ابتعدت عني كثيرا وأخذت الرياح والأمواج تتلاعب بها بعنف وقســوة كأنهــا تنتقم من هــؤلاء حتى عجزت السفينة عن المقاومة فانقلبت بمن فيها في الماء البارد ، كان المشــهد مهيبا و مخيفا ومع ذلك لم أشعر نحوهم بمثقال ذرة من شفقة أو رحمة. كان البحر هائجا بشدة والجو مظلما والماء شديد البرودة، لكن رغم ذلك شعرت براحة لم أشعر بها من قبل)) [٣٣] .

فعلى الرغم من أهوال البحر وبرودة مياهه غير أن مــا لاقاه علي بدية من أهــوال تفوق ذلك بكثير يقول : ((كنت أشعر أني الآن أصبحت حرا طليقا حتى لو كانت تلك الحرية في أعماق البحار، فمهما بلغــت قســوة البحر.. لــن تصل إلى قســوة هؤلاء الســفَّاحين ...)) [٣٤]. إن توصيف الروائي للمكان يؤثر في ســم صورته وإن خالفت ما تعارف عليه الناس من الصورة النمطية للأهوال كغرق السفن لكــن أحمــد أمين هنــا أقنعنا أن يكــون في الغرق خلاص الشخصية المضطهدة .

(٣٢) م . ن : الصفحة نفسها .
(٣٣) الأندلسي الأخير : ١٠٨ .
(٣٤) م . ن : الصفحة نفسها .

السرد

السرد من أبرز تقنيــات العمل الروائي الجوهرية وتختــص بالفعــل الحكائي ، عرَّفــه د. عز الدين إســماعيل بأنــه : ((نقــل الحادثة مــن صورتها الواقعية إلى صورة لغوية)) [٣٥] .

فمــن خلال الألفاظ يعــزز أحمد أمين الجانبين التصويــري والنفــسي مما يجعــل سرده فنياً[٣٦]، ويقــوم بالسرد الــراوي الذي يبــدع القصة، وقد وصفــه د. لطيــف زيتوني بأنــه :((فعل حقيقي أو خيــالي ثمرتــه الخطاب، ويشــمل الــسرد، على سبيل التوسع، مجمل الظروف المكانية والزمنية ، الواقعية والخيالية ، التي تحيط به، فالسرد عملية انتــاج يمثــل فيها الــراوي دور المنتــج ، والمروي لــه دور المســتهلك، والخطــاب دور الســلعة المنتجة))[٣٧] .

وقد بــرز في روايــة (الأندلسي الأخــير) نوعان من السرد

الــسرد الذاتــي : وهــو مــن الأنــواع المهمــة في الكشــف عن الأحداث فهو((يرتبط بذاتية إحدى الشــخصيات التي يفســح لها المجال بالدخول في مغامــرة إثبات الــذات الروائية مــن خلال منطق السرد الحكائــي)) [٣٨] وقد اســتعمل أحمد أمين هذا النوع كثيرا عندما يبين الراوي تطور الأحداث وتســارعها ، أو الحديث عن حدث ذاتي له أثره في تغير الأحداث في داخل الرواية ، كما في وصف علي

(٣٥) الأدب وفنونه : ١٠٤ ــ ١٠٥ .
(٣٦) ينظر م . ن : ١٠٥
(٣٧) معجم مصطلحات نقد الرواية ، د. لطيف زيتوني ، مكتبــة لبنان ناشرون ، دار النهار للنشر ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٢ : ١٠٥
(٣٨) جماليات التشكيل الروائي : ٣ .

بدية لنزوله في بهو الكنيسة واطِّلاعه على كتاب يحوي اعترافات الموريسكيين في أثناء التعذيب. يقول على لسان علي بدية :

((كان الأرق جليسي- في تلك الليلة، متشبثا بي كطفل صغير يخشى أن يفلت من يد أمه فيضل الطريق، كان الجو حارا وخانقا ورطوبة الهواء قادرة على كتم أنفاس البشر في لحظة واحدة لا أدري لماذا حدَّثتني نفسي بالنزول إلى بهو الكنيسة في ذلك التوقيت نزلت الدرج متثاقلا، حتى وصلت إلى منتصف البهو، وأخذت اتمشَّى فيه متأملا ما حولي مستترا بظلام الليل التي لم تنجح الشموع المضاءة إزاحته، إن هذا الظلام شبيه بالظلام الذي خيم على غرناطة الفارق بينهما أن ظلام الليل يرحل مع بزوغ النهار لكن ظلام غرناطة يبدو أنه لن يرحل أبدا.))[٣٩] وفي قوله متابعا السرد في الحدث ذاته "

((من بعيد.. لمحت بصيص ضوء بجانب باب القبو، فاتجهت ناحيته فلم أجد أحدا غير أني وجدت باب القبو مفتوحا ، نظرت إلى ما وراء الباب برهبة وخوف، فلم أهبط هذا المكان المرعب سوى مرتين كانوا ينقلون بعض الأوراق إلى أسفل، ويومها طلب مني أحد القساوسة مساعدة العمال في حمل الورق.

يومها سمعتهم يهمسون أن تلك الأوراق تحوي اعترافات الموريسكين وأوراق التحقيقات))[٤٠].

أما السرد الموضوعي فيكون بين شخوص الرواية ويهيمن عليه الراوي العليم الذي يعرف أسرار شخصياته وخفاياها وما هو معلوم ومجهول من تاريخ الحدث الروائي. وتكون وظيفته الإبلاغ والإخبار[٤١].ومن الأمثلة عليه : ((كان أحد أصحاب الحوانيت يتشاجر مع أحد المتسولين، لم أفهم سبب المشاجرة لكني سمعت التاجر يقول له:

أنتم لا يهمكم في هذه الحياة إلا أن تملؤوا بطونكم بدون عمل أو جهد، أما نحن فندفع ثمن الحرب والحصار. ماذا تملكون في غرناطة حتى تخافوا عليها؟! أنتم تتمنون سقوطها لعلكم تصبحون أثرياء مع سادتكم الجدد.

اندفع المتسول في الكلام قائلا بحزن ومرارة وبصوت يتهدج بالدموع: غرناطة لا تعني لأمثالك شيئا، ولن يفرق الأمر معك سواء كان الحاكم ابن الأحمر أم النصارى، في الليل تأوي إلى منزلك ونأوي نحن إلى شوارعها وحقولها، إلى ترابها نحتضنه ونحتمي به، أمثالك لا يعرفون ما غرناطة، إنها الروح التي تسري في أجسادنا فتدفع في عروقنا نبض الحياة، أما أنت فكل ما يهمك هو كساد تجارتك.

صمت التاجر تماما وأخذ ينظر إلى المتسول في ذهول !))[٤٢] هكذا روى لنا الراوي العليم هذه المحاورة ، التي تكشف عن كون الفقراء يحبون غرناطة أكثر من الأغنياء الذين سارعوا إلى بيع ممتلكاتهم عندما اقترب تسليمها ولم يدافعوا عنها . ومثل هذه المحاورة قول المتسوِّل : ((أنتم الأغنياء لا تعرفون حرَّ غرناطة ولا بردها ولا

(٣٩) الأندلسي الأخير : ٩٨ .

(٤٠) م . ن : الصفحة نفسها . .

(٤١) ينظر: الصوت الآخر، الجوهر الحواري للخطاب الأدبي، فاضل ثامر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٢: ١٨٢ .

(٤٢) الأندلسي الأخير : ٣٥ .

حنانهـا، صحيح أننـا لا نمتلك شـيئا فيها، لكننا قدَّمنا إليها عرقنا ودماءنا فامتزجوا بترابها قدَّمنا إليها أرواحنا بدون أن ننتظر منها شيئا فاذا قدَّمتم أنتم؟ هل أصبحنا جميعا حكماء هذه الأيام؟ ليت تلـك الحكمة تنزَّلت علينا منذ فترة لكانت الأحوال تغـيرت، ولـم نصل إلى تلـك اللحظـة))[٤٣] فكان المتسـول يروي حال تمسـك الفقراء بالمدينة التي ضيَّعها الأغنياء.

أسلوب الروائي أحمد أمين

مـن الطبيعـي أن تكـون الروايـة التاريخيـة مختلفـة عن الروايـات الأخـرى فالروائي ينطلق مـن التاريخ ليضفي على أحداثـه تصويرا وسردا ويمـازج بينها وينقلها مـن وصفها التاريخي إلى مداهـا السردي الجميل ، فيقـدم الأحداث بصورة مشوقة يختلط فيها الواقع بالخيال .

وأهم ملحوظاتي على هذه الرواية ما يأتي :

ـــ تقديم المأساة الموريسكية بشكل جعل قضيتهم قائمـة في القلـوب ، قدَّم الشـخوص مفعمة بحبِّ الوطن والتمسُّـك بالدين والثبات على العقيدة . لا فـرقَ بين صغيرها وكبيرها فكلهـم أحبَّ غرناطة وشـعر بضياعـه الذي اقـترن بضياعهـا ، وعمل جاهـدا على مواجهة الأحداث بقلوب صلبة تتحمَّل ألوان العـذاب لكنها تبقى تدافع عـن هويتها ولا تعطـي العـدو فرصـة في الالتـذاذ بضعفهـم أو توسُّلهم له .

ـــ توظيف الرموز بشكل ناطق عن ثقافة الراوي واطِّلاعه على جزئيات القضيـة وتقديمها للقارئ بشـكل مرئـي من خلال جمـال التصويـر ، فقد وظَّف الأيام وجعل الجمعة يوما للتغيير ومخالفة العادات[٤٤].

ـ توظيـف الأسـماء فالأسـماء في الروايـة ناطقة عمـا تؤديه من معنى ومجسِّـدة لأثر أصحابها في التاريخ .فالذي أحضر المخطوطة التي انطلق منها الروائـي هو (فرحات)[٤٥] فلـم يكن فرحا واحدا إنما هو مجموعة أفراح أدخلها على قلب الروائي .

ـ إطلاق أسـماء معبِّرة على الشخصيات التي غير الإسبان أسماءها كما فعل الشيخ عمر مع خوسيه يقـول : ((فرغ الشـيخ عمر من حديثه وابتسـم قائلا : مرحبا بك في المسجد يا علي ، قلت في سرعة اسمي خوسيه .

ابتسـم الشيخ في وجهي وهو يقول : هذا اسمك النصراني أما اسمك العربي فإنّه (علي)[٤٦] .

ولـم يكتـفِ بالإجمال فقد لجـأ إلى التفصيل في قولـه : ((كان للاسـم وقع جميـل في نفسي، أخذ الشـيخ عمر يحدثنـي أن علي هذا كان اسـم ابن عمّ رسـول اللـه ، وكان صغيرا مثـلي، وقد أطلعه النبي(ص) على دعوة الإسـلام في بدايتها وائتمنه عـلى حفظ سرهـا، وكيف أنه نام في فـراش النبي ليلة الهجرة.وأشياء أخرى كثيرة..))[٤٧] .

أمَّـا (الشـيخ عمـر) فقـد أخـذ من شـخصية الخليفة عمر بن الخطاب (رض) القوة والصلابة ومجابهة الأعداء وبقي منظما لعمل الموريسـكيين وكفاحهم في داخل الكنائس على الرغم من مراقبة

(٤٣) م , ن : ٣٦ .

(٤٤) ينظر الأندلسي الأخير : ٨ .
(٤٥)م . ن : ٨ .
(٤٦) م . ن : ٥٧ .
(٤٧) الأندلسي الأخير : ٥٨ .

الإسبان الشديدة له حتى انتهى به الأمر إلى إحراقه ورفاقه في بيتــه الذي اتخذه مســجدا ليمضوا إلى ربهم شــهداء سعداء، يقول : ((لم يمض أكثر من أربعة شــهور حتــى عثرت محاكــم التفتيش على مسجد عمر وبداخله ثمانية من الموريسكيين وهم يصلون وكان تنفيذ الحكم في الحال؛ إذ أحرق كل من في المســجد وهم يصلون، وكانت نهاية فاجعة للموريسكيين الذين لم يتبقَّ منهم أحد سواي))[٤٨].

وكاســم (إبراهيم) وهو والــد علي بدية ،إذ قال له قائــد المجموعة الإســباني : ((لقد انكشــف أمرك يــا بديــة أم تحــب أن أناديك يا (إبراهيــم)، كان هــذا اســم أبي العربــي حينهــا أدرك أن كل شيء قد عُرف))[٤٩] فأراد أن يجســد بطولة (إبراهيم) عليه السلام ليعكسها على بطولة والد علي بدية الي أحرق وعائلته كلها بالنار

أمَّا النســاء فلم يفصح عن أسمائهن ، وربما كان ذلك رمزا للبطولة فالتركيز كان على الأفعال لا على ما تحمل من أسماء إنما تحدَّث عنهن بلفظ العجوز أو (مســلمة أبدة)أو (مســلمة أبلة)إلا أم عبد الله الصغــير فقد ذكر أنها (عائشــة الحرة) ووصفها بأنهــا (تركب جوادها العربي)[٥٠]، ليجسِّــد بذلك المفارقة ، فابنها رمز الخنوع وهي عائشة الحرة، وهو من ضيَّع مجد العرب والمســلمين في إســبانيا وقضى عــلى كل ما هو عربي وهي (تركب جوادها العربي) .

ـ اســتدعى الروائــي الكثير مــن الآيــات القرآنيَّة الكريمة كما في قولــه ((تمنيت في تلك اللحظة لو أنــي مِتّ قبل هذا وكنت نســيا منســيا))[٥١] فقد وظَّف في هذا التناص قوله تعالى على لسان السيدة مريم (ع) فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنسِيًّا)[٥٢] وربما استلهم من السيدة العذراء (ع) صمودها وتقبلّها أمــر الله تعــالى لينعكس على تقبّل الموريســكيين للمأســاة ومواجهة أقسى الظــروف بصبر وإيمان شديدين .

كما كان له تناصٌّ مع حديث رسول الله «صلّى اللــه عليــه وآلــه» ، في قولــه : ((وأنَّنا مــن الذين قــال عنهم الرســول: إنَّهــم قابضون عــلى دينهم كالقابــض على الجَمْــر، وأنَّ الله ســوف يجازينا أحســنَ الجَزَاء على صَبْرِنا وتحمُّلِنَا المَشَــاق))[٥٣] فقد ضمَّن حديث رســول الله (ص): ((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَــانٌ، الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِــهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ)) [٥٤].

ظهور الاستعارات المكنية التي استطاع الراوي مــن خلالها رســم المشــاهد المتحركة مــن خلال التشــخيص وهو : ((إبراز الجمــاد أو المجرد من الحيــاة ، من خلال الصورة ، بشــكل كائن متميز بالشعور والحركة والحياة)) [٥٥] .

وهــذ ما بــرز في مثل قوله : ((كنت أشــعر بهم يراقبونني..

(٤٨) م. ن : ٨٥ .
(٤٩) م . ن : ٥٨ .
(٥٠) الأندلسي الأخير : ٥١ .
(٥١)م . ن : ٤٥ .
(٥٢) سورة مريم :الآية ٢٣ .
(٥٣) الأندلسي الأخير : ٥٧ .
(٥٤) الجامع الصحيح ســنن الترمذي ، محمد بن عيسى بن ســورة الترمــذي ت ٢٧٩هـ تح أحمد محمد شــاكر، دار الكتــب العلمية بيروت لبنــان ، د. ت : ٤/ ٣٥٦ .رقم الحديث ٢٢٦٠
(٥٥) المعجم الأدبي ، جبُّور عبد النور ، دار العلم للملايين بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٤ : ٦٧ .

يتتبعــون خطواتــي.. يحــاصرون أفــكاري .. يتحَيَّنُون فرصة السقوط..

لينقضُّوا على فريسة جديدة.. ناشبين فيها أنياب الحقد والكراهية ..)) [٥٦] .

فهم سِــبَاع ضارية تنقضُّ على فرائســها لتنشــب فيها الأنياب

غير أنهم أشــد فتكا من السِّبَاع ؛ لأنهم ينقضون على المســلمين لا من جوع كالسِّــبَاع بل من حقد وكراهية .

أو قولــه : ((ولدنــا صغارا لكننــا لم نكن مثل باقي الصغار في الأوطــان الأخرى ، لقد ولدنا على آهات غرناطة وهي تحتضر، ورأينا أفئدة الصغار وهي تنفرط حزناً على حمراء غرناطة)) [٥٧] .

ولــم تخــلُ من التشــبيهات التي اســتعان بها الروائــي في رســم الصــور كقولــه : ((الأمــور في غرناطــة مضطربــة الآن والغضــبُ عــمَّ أرجاءها وقوات محاكم التفتيش تتحرك كالذئب المســعور لم تترك شبرا في غرناطة إلا وقامت بتفتيشه))[٥٨].

فعــلى الرغــم من كون المحاكــم مجموعة إلا أنّه شــبهها بذئب واحد مســعور ؛ ليبين أنّ الحقد قد اتحد في واحد ولم يكن الفريق ليختلف في قســوته لكأنه واحد في الأداء ، وقد وصف الذئب بالمسعور ليجعله أكثر ضراوة وحقدا فلا يهزّه آلام الصغار ولا آهات الأمهات، ومن التشــبيهات أيضا ما جاء على لسان علي بدية يصف مسلمة أبلة : ((ابتسمت لي واقتربــت مني في بطء، وناولتنــي رغيف خبز، أخذته منها برفق وشــكرتها كأنهــا امرأة تعطي صدقــة لراهب يخــدم في بيت الــربّ)) [٥٩] ، فهي تعطيه رغيف خبز وشــبهها بامرأة تعطي صدقة لراهــب يخــدم في بيت الربّ ، وأعتقــد أنه لم يكن يشــعر بكونه راهبا حقيقيا موجودا في الكنيســة لذلــك جاء بهذا التشــبيه ليدل أنَّه عــلى الرغم من تنصُّره الظاهري فهو لا يشــعر إلا بكونه مســلماً حقيقياً وهذا هو واقــع حاله وحال كل من تنصَّر مجبرا.

ـ إنَّ عنــوان الروايــة : (الأندلــسي الأخير) يوحي بانتهــاء الموريســكيين وخروجهــم إلى الأبــد مــن الأندلــس ، وهــذه حقيقــة مــن خيــال الكاتــب ، فالموريســكيون بقــوا ودوَّنُــوا أدبهم واســتمَرُّوا وهاهم في إسبانيا ما زالوا شوكة في عيون أعدائهم كما أنَّ النهاية توحي برحيل هذا الأندلسي إلى مكة المكرمــة لتكون مَلاذا آمنا للمســلمين ؛ بدلا من أن يكون مُبَشِّراً مسيحيا في الفلبين كما كان مخطَّطا له لولا رحمة الله بغرق السفينة التي نقلته ، ومن كان مقــرَّرا له الرحيل للتبشــير لتغرق الســفينة ويكون هو الناجي الوحيد[٦٠].

ـ كثيرا ما يســتعمل الباحثون في الشأن الأندلسي والأدب الأندلس مصطلح سقوط غرناطة والصواب ما اســتعمله أحمد أمين(تســليم غرناطة) يقول : ((اســتيقظت فزِعاً من نومي عــلى أصوات صُراخٍ وعويلٍ تتردد في جنبات غرناطة، فخرجت مسرعا لأســتطلع الأمر، فكان وقع الخــبر على كالصاعقة لقــد وقَّع أبو عبد الله على وثيقة تســليم غرناطة! عــمَّ الصراخ والبكاء المدينــة، وأخذنا نتدافع حتى

(٥٦) الأندلسي الأخير : ٦٦ .
(٥٧) الأندلسي الأخير : ٤٤ .
(٥٨) م. ن : ٢٠ .
(٥٩) م . ن : ٧٤ .
(٦٠) يُنظر : الأندلسي الأخير : ١٠٧ ــ١٠٨ .

وصلنا إلى الساحة الكبرى ...)) [٦١] .

ـــ نظرا لكـون الرواية تاريخية فهي لا تخلو من التقريرية أحيانا لأنها تلجأ إلى السرد التاريخي أو التحليل السـياسي كما في قوله ((فسـلطان مصر وسـلطان العدوة شـغلتهم[٦٢] أمورهما الداخلية عـن إرسـال نجدة لنـا، لـم أكـن أدري أي أمور داخلية تمنع من نصرة غرناطة؟ حتى العثمانيين شـغلتهم غزواتهـم الأوروبيـة وتوسـعاتهم عن إنقاذنا ،هل كان الأولى فتح بلد جديد للمسلمين أم حماية بلد إسـلامي عريق شارفت شمس الإسلام فيـه على الأفول؟! لو شـغل العثمانيون أنفسـهم قليلا بالأندلس لما ضاع ملك الإسلام فيه))

فقـد أشـار إلى تخاذل بـلاد المسـلمين عن نصرة الأندلس بنص تقريري قد يرد في أي مقال سياسي. هذا غيضٌ من فيض مـا لاحظته على هذه الرواية التي تبقى ناطقة بمأساة الموريسكيين .

المصادر والمراجع

ـــ القرآن الكريم .

ـ الأندلسي الأخير ، أحمد أمين ، دار تبارك للنشر والتوزيع، القاهرة ، مصر ، ط٦، ٢٠١٨ .

ـ البيت الأندلسي واسـيني الأعـرج ، دار الجمل ، بيروت ـ بغداد، ط١ ، ٢٠١٠ .

ـ ثلاثية غرناطة ، رضوى عاشور ، دار الشروق ،القاهرة، ط٣ ، ٢٠٠١ .

ـ الجامع الصحيح سـنن الترمـذي ، محمد بن عيسى بن سـورة الترمذي ت ٢٧٩هـ تح أحمد محمد شـاكر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، د. ت.

ـ رحلـة الغرناطـي ، ربيـع جابـر ، دار التنويـر ، ط٢ ، بيروت ، لبنان ، ٢٠١٣ .

ـ السرد والوصف،(بحـث) جيرار جينيت، ترجمة: مهند يونس، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، ع ٢، ١٩٩٢ .

ـ شـخصية المـكان في أدب الرحلـة ، أحمـد عبـد العظيم رومية ، دائرة الثقافة والإعـلام الإمارات العربية المتحدة ، الشارقة،ط١ ، ٢٠١٥ .

ـ الصوت الآخر، الجوهر الحواري للخطاب الأدبي، فاضل ثامر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٢.

- في النقـد الأدبي الحديـث، مجد محمد الـبرازي، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان - الأردن، ط١ ، ١٩٨٦

ـ مخيَّـم المواركـة ، جابـر خليفـة جابـر ، دار فضاءات للتوزيع والنشر عمَّان الأردن ط١ ، ٢٠١٢ .

ـ المعجـم الأدبي ، جبور عبد النـور ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٤ .

ـ معجـم مصطلحـات نقـد الرواية ، د. لطيـف زيتوني ، مكتبـة لبنان ناشرون ، دار النهار للنشر ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٢ .

ـ مقامات إسماعيل الذبيح ، عبد الخالق الركابي المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت : ٢٠١٦ .

ـ نقد الشـعر ، أبو الفـرج قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، تحقيـق: كمـال مصطفـى، مكتبـة الخانجـي، القاهرة، ١٩٤٨.

ـ هجرات الموريسكيين ، د.عبد اللطيف مشرف ، منشورات الربيع ، مصر ، القاهرة ط٢ ، ٢٠٢٠ .

(٦١) الأندلسي الأخير: ٤٧ .
(٦٢) الأندلسي الأخير ٤٤ .